لغة العرب

مجلة شهرية أدبية علمية تاريخية

﴿ الجزء ٢ من السنة ٦ عن شباط سنة ١٩٢٨ ﴾

الدرويش

Le Derviche.

الى القارئ :

دونك مقالا طريا طريفا لم تطالع نظيره في الصحف او المجلات ، وبالاخص لان المستشرقين الذين عالجوا هذا الموضوع لم يقفوا على كل ما فيه من دقائق الاسرار ، فجاء كاتبنا احمد حامد افندي الصراف ووفى البحث حقه ، فنوجه الانظار اليه . (ل.ع)

توطئة

ولدت في مدينة كربلاء ؛ وكربلاء مدينة يحترمها المسلمون كافة . ويشدون الرحال اليها لزيارة الشهداء الكرام من بني هاشم الذين قتلوا في معمعة كربلاء في القرن الاول من الهجرة . وفي هذه المدينة الحزينة الباكية اناس من كل فج عميق اذ ترى فيها الفارسي والهندي ، الافغاني والتركماني ، الاحسائي والبحراني ، وغيرهم من المسلمين الذين يؤمونها حبا بمجاورة المزارات المقدسة ، وهي كسائر المدن التي فيها مزارات الائمة العظام كالنجف والكاظمين وسامراء ، لا ينقطع منها النواح والبكاء ، ولا تكفكف فيها الدموع كما لا تخلو من التعازي والمآتم

ومع ما في بساتينها الزاهية المحيطة بها من دواعي الانس والسرور ، وفي شوارعها الطويلة العريضة المستقيمة من بواعث الانشراح والرفاهية ، ترى فيها الالم سائدا ، والحزن مبثوثا في افئدة سكانها ، والبؤس متمثلا في ليلها وضحاها.

في مسقط رأسي هذا شاهدت « الدرويش » لاول مرة اذ في كربلا عدد عظيم منهم وقد لا تخلو ابدا من درويش يرن صوته رنين الجرس عند انبلاج الفجر او عند جنوح العصر او عند حلول الغيهب ، في الصحن الشريف او في الاسواق او في الازقة — يرن صوته مادحا او راثيا أو باكيا او متباكيا ومن ثم داعيا للناس بالخير ومستجديا .

اعتقاد الناس في « الدرويش » اعتقاد حسن ومنهم من يعتقد فيه الخير والصلاح والزهد والعفاف ، حتى الكرامات . والنسوة يتفاءلن برؤيته ويتهافتن على الاحسان اليه ويفرحن بدعائه وكلماته وينفحنه مبلغا من المال ليكتب « تمائم وحروزا وادعية » لبنيهن وبناتهن . والعاقرات منهن يفزعن اليه ليدبر لهن وسيلة للحبل ، وغير المتزوجات يهرولن اليه ليخط لهن دعاء يسرع زواجهن ومنهن من تحمل ابنها الوجع أو ابنتها المريضة ليمر الدرويش يده على راسه او رأسها . والخرافيات الجاهلات منهن يعتقدن ان الجن طوع ارادته ، ورهين اشارته الى غير ذلك من الاعتقادات العجيبة المضحكة .

وقد عن لي عام ١٩١٨ ان اعجم عود هؤلاء الدراويش واطلع على معتقداتهم وآرائهم وان اتفهم «نفسياتهم» واعلم سبب تفضيلهم حياة التسول والاستجداء على العمل والجد فاتصلت بكثيرين وخالطتهم طويلا فعرفت اسرارهم ورموزهم والقابهم وشاهدت فيهم الفاضل المهذب والعفيف الورع ، وشاهدت فيهم الجاهل المغفل والخبيث السفيه . كما فيهم المعتقد بتقمص الارواح ، والمؤمن بالحلول والقائل بالتناسخ ، بل فيهم الملحد المتظاهر بالدين كذبا . كما فيهم المعتقد بألوهية علي بن ابي طالب (ع) ، ومنهم من يعتقد بنبوته وخيانة (جبريل) لرسالته لانه بلغ الرسول بالنبوة والرسالة بدلا من علي بن ابي طالب . وقد دونت حياة عشرة دراويش وهي ملأى بالحوادث والوقائع والاعتقادات الغريبة العجيبة .

والذي اكتبه الان هو نتيجة تحقيقي وثمرة بحثي الطويل وهو غير مستند

الى كتب واسفار ، بل استقيته من الدراويش مباشرة واخذته من افواههم فالدرويش هذا — ولا ريب عندي — هو من صماليك قلول المتصوفة . واقصد بقلول المتصوفة اصحاب تلك الطرائق التي اخذت التعاليم والآداب من السنة والشيعة والاسماعيلية والباطنية والحلولية كالبكتاشية والمولوية والقزلباشية والعلوية والعلي اللاهية . والسبب الذي دعاني الى ان اعتقد بهذا الشيء هو انني وجدت عند درسي الدراويش وتدويني تراجم احوالهم ان بعضهم يعتقد بالحلول وتقمص الاجسام والتناسخ كما اسلفته .

الدرويش

الدرويش كلمة فارسية معناها « المتسول » وهو ذلك الشخص الذي نراه احيانا في الاسواق والشوارع منشدا شعرا بالفارسية غالبا او العربية احيانا في مدح آل البيت ولهذا ولامثاله اي للدراويش المتسولين تكية خاصة بهم يلجأون اليها في كل مساء ليتناولوا فيها طعامهم ويتحادثوا في شؤونهم برئاسة « البير » اي « الشيخ او الرئيس » وهذا البير هو الذي يدبر شؤون التكية ويعلم المريدين او المنتسبين الى الطريقة كيفية الاستجداء والتسول . ولبعضهم نفوذ عظيم وكلمة مسموعة فيخضع لامره الدراويش جميعهم ولا يترددون في تسليمه جميع ماحصلوا عليه في يومهم وهو الذي يقسم بينهم الدراهم بالسوية ويهيىء لهم الطعام .

وهؤلاء الدراويش لا يربط بعضهم ببعض رابطة فكرية او فلسفية ولا يجتمعون على مبدإ واحد بل رابطتهم الوحيدة هي التسول والاستجداء وليس هناك شيء من الرسوم او العوائد التي يجب ان يراعيها من يريد ان يتدروش (اي يكون درويشا) ويكفي لمن يريد ان ينظم في هذا السلك ان يكون ذا صوت شجي رخيم ويحفظ كثيرا من الشعر الفارسي في مدح آل البيت وشجاعة عند الاستجداء مع قلة حياء .

وهم متفرقون في الاقطار والمدن التي فيها مزارات مقدسة وهم اصبر خلق الله على احتمال المصائب والرزايا فلا يبالون بلفحات الحر ولا بلسعات الشمس المحرقة ولا بصولات برد الشتاء كما لا يستقرون في بلد ولا يسكنون في مدينة . كأنهم مأمورون على فرع قضاء الله .

وليس لهم اي صنعة او حرفة سوى الاستجداء والتعيش من الحسنات والصدقات التي يجود بها الناس عليهم وبينهم من يرون مهازيل نحفاء قد انتابت جسومهم الاوجاع والامراض وعلى وجوههم سيماء الكآبة بل يقطر منها البؤس ويتمثل فيها الشقاء. شعث غبر قد تعود اكثرهم الرذيلة فلا تجد عندهم وفاء ولا ذمة ولا فضيلة ولا ايمانا صحيحا .

انك ترى اكثرهم لا يترددون في ارتكاب المنكرات والموبقات والكبائر. يشربون الخمرة ويرتكبون الكذب ويستعملون الحشيشة [١] ويشربون الافيون وقد تجد بعضهم احسن حالا واقل شقاء فتراهم نظيفي الثياب حسني الاخلاق كثيري الفضائل ودعاء مسالمين .

ولبعضهم وسائل شيطانية في اغواء الشباب لهتك اعراضهم وتمزيق آدابهم فلقد يتحيلون مدعين بمعرفة (الكيمياء) ـ وهي في عرف العوام ـ ايجاد الذهب فيقربون من الفتية المرد بهذه الاحلام والخيالات ويصورون لهم القناطير المقنطرة من الابريز الذي يحظون به بعد تعلم الكيمياء حتى اذا وفق احدهم لاصطياد فتى فر به الى ارض نائية بعيدة عن وطنه وافسد اخلاقه فتكون الصلة بينه وبين الفتى الامرد عين الصلة التي كانت بين والبة بن الحباب وبين تلميذه ابي نواس يوم كان غضا يافعا .

لباسهم

للدرويش لباس خاص وبزة غريبة هي اعجوبة من العجائب ومنظر فظيع يستوقف الناظر اليه فيدهشه . فيخيل الى الرائي اذا نظر الى الدرويش انه يرى مخلوقا اقرب الى الوحش منه الى الانسان. يتقوم لباس الدرويش (١) من قلنسوة طويلة من اللبد الابيض ضاربة الى صفرة موشحة بآيات قرآنية ومطرزة بابيات فارسية تتوسطها طرة كتب فيها (بندة علي) اي (مملوك علي بن ابي طالب) وتحت هذه القلنسوة شعر طويل مسترسل كالجدائل على كتفيه فوجه اشعث اغبر قد التصقت في اسفله لحية طويلة نتنة هي اشبه شيء بالمخلاة (٢) من ثوب خلق فوقه جلد طويل من جلود النمور او الذئاب او الخراف (٣) من جراب فيه انواع

[١] حشيشة جلال الدين حيدر .

من الحاجيات الصغيرة كالابرة والخيط والمقص(٤)من صرة فيها انواع الحشيش والافيون (٥) من قدوم ذات حدين منقوشة عليها ابيات فارسية وكلمات مأثورة

صورة درويش بلباسه

لاكابر المرشدين منهم (٦) من هراوة ذات تعاريج وعقد (٧) من كشكول اسود يرفعه بيده اليسرى (٨)من سلسلة من النحاس(٩)من قرن طويل من قرون الجاموس او الثيران ينفخ فيه كالبوق مع رفاقه واخدانه اثناء الاجتماعات ولا سيما

حينما يجتمعون للعزاء والمآتم (١٠) من حبل طويل قد علقت فيه التمائم والادعية وانواع الحرز والحجـــارة والودع والدهاش وبالجملة تكون هيئته هيئة غريبة شنيعة قل هي هيئة العفاريت والابالسة ليس إلّا .

القابهم ، درجاتهم ، رموزهم

والدراويش القاب وكنى ما عدا اسماءهم الاصلية ولكل درويش اسم عادي كقاسم ومحمد وتقي وغير ذلك . واسم آخر هو اسم الدروشة مثل (بندة علي) اي مملوك علي مع لقب خاص جميل لطيف الوقع على السمع مثل (كل) اي ورد . و (بهار) اي ربيع و (آزاد) اي حر و (نور خدا) اي نور الله و (خـــدا داد) اي عطاء الله و (بي بروا) اي غير مبـالٍ و (خرد مند) اي العاقل و (كل دسته) اي حزمة ورد او باقة زهر .

اما مراتبهم ودرجاتهم فسبع وهي :

١ــ المنتسب ويكون عادة غلاما يلقما يصحب احد الدراويش ليلقنه الاسرار ويعلمه الرموز ويدربه على تلاوة الشعر بالهزج والغناء ويشجعه على الاستجداء .

٢ــ المريد ويكون مساعدا للدرويش ويتلو معه الشعر ويدعو بالخير لمن يجود بشيء على الدرويش .

٣ــ الدرويش وهو الذي مهر في الشحاذة وتفنن في الاستجداء وحفظ من الشعر شيئا كثيرا وتمكن بذلاقة لسانه من ان يؤثر في سامعيه فيحصل منهم على بغيته .

٤ــ المرشد وهو شيخ التكية وكبير الدراويش في يده العقد والحل وهو الذي يقسم الدراهم على الدراويش ويهيىء لهم الطعام .

٥ــ القلندر وهو كالدرويش إلّا انه اعظم مقاما من المرشد ومحرر من قيود التكاليف والرسوم بعيد عن الاماني والامال في الحياة منزه عن ظواهر العبادة الاسمية طالب جمال الحق وجلاله ، واصل الى الفيوضات السنية من لدن الاحد المطلق ولا يركن الى الكون واهله المغرورين . والخلاصة هو ذاك الذي يطلب الكمال ويخرب العادات في التجريد والتفريد ويتوخى في العبادات القصد وصدق الاعمال (١)

(١) عن برهان قاطع بتصرف قليل .

٦ــ الرند (بكسر الراء) وهو من كان في اسمى درجة من الدراويش لا يبعد عن القلندر إلّا بعدم المبالاة والاهتمام بالعرف والعادات وكثيرا ما تكون سيرته واعماله هدفا للنقد واما قلبه فظاهر صاف كالمرآة المصقولة وظاهره مشكوك فيه جالب للوم .

٧ــ البير (بباء مثلثة فارسية) هو « كالقطب » عند الصوفية والبير ليس من الدراويش ولا من الذين يتنزلون الى الاستجداء اذ قد يكون من ذوي المال والجاه إلّا ان الدراويش يتبركون به ويعتقدون فيه الكرامات ويرون فيه كشاف الاسرار فيشدون الرحال اليه ويقصدونه لمجرد تقبيل يده والنظر اليه . والبير نادر جدا وقد لا يظهر واحد خلال قرن والدراويش يسمونه « ستارة حكمت » اي « نجم الحكمة » (١)

ان هذه المراتب والدرجات التي اسلفنا ذكرها لا تنال بالاقتراع والانتخاب بل يحصل عليها من يرزق قلبا ذكيا ، وعقلا ثاقبا وحافظة واعية وبراعة في الشحاذة وصوتا رخيما فيرتقي حينئذ الى المرشد او الى القلندر في ايام معدودات .

اسرارهم واشاراتهم

الحشيشة : ويسمونها «الاسرار» والدراويش جميعهم يعرفون بها ولعوت باستعمالها ولعاعظيما اللهم إلّا النزر القليل منهم والحشيشة هي التي افسدت اخلاقهم وانحلتهم وولدت في نفسهم الجبن وفي الوجه الاصفرار وفي الفم النتانة وفي الحواس الضعف لان فيها خاصية التخدير والسكر . والاكثار منها يخرج شاربها الى حد الرعونة بل الى الجنون ومن ثم يأتي الموت باكرا ولهذا ذهب الوف من الناس ضحايا للحشيشة .

والحشيشة اسم اطلق على ورق القنب الهندي حكما اخبرني بذلك مؤيد الاطباء (٢) وهي ارهف سلاح بيد الدرويش لهتك آداب الفتيان واغوائهم بالشر وقد دون المقريزي تاريخ اول ظهور الحشيشة واستعمالها وذكر انها تسمى بحشيشة الفقراء وسبب ذلك انه كان شيخ للفقراء اسمه (حيدر) كثير الرياضة

(١) ذكر لي ذلك درويش اسمه (بي يروا) .

(٢) مؤيد الأطباء اسم طبيب يعالج مرضاه على الطريقة القديمة وهو كريلاق المولد

والمجاهدة قليل تناول الغذاء وكان قد نشأ بخراسان واتخذ زاوية في احد جبالها ومعه جم غفير من الفقراء . فمكث هناك اكثر من عشر سنين لايخرج ولايدخل عليه إلّا رجل كان خاصا بخدمته فخرج وحده في يوم شديد الحر ثم عاد وقد علا وجهه نشاط وحبور بخلاف ما عليه قبلا فأذن لرفقائه بالدخول عليه وجعل يكلمهم فسألوه عن الحال التي صار اليه فقال بينما انا في خلوتي اذ خطر لي الخروج الى خارج المدينة منفردا فلما خرجت وجدت كل النبات ساكنا لايتحرك لسكون الريح ولفت نظري نبات له ورق فرأيته يميس بلطف ويتحرك تحرك السكران الثمل فجعلت اقطف منه اوراقا وآكلها فحدث لي من الارتياح ما ترون فهيا بنا الى البرية لاطلعكم عليه فتعرفوه . فخرجوا وراءه فلما رأو قالوا له : هذا هو القنب فتهافتوا على اوراقه فاكلوا منها فسروا وطربوا فامرهم الشيخ كتم هذا السر إلّا عن الفقراء قائلا لهم : ان الله خصكم بهذا السر لينهب عنكم همومكم الكثيفة ثم حثهم على زرع هذا النبات حول ضريحه بعد وفاته وبقي يأكل منه بقية حياته ثم توفي سنة ٦١٨ هـ وبني على ضريحه قبة فاتته النذور الوافرة من اهل خراسان (١) وعظموا قدره واحترموا اصحابه وكان قد اوصى اصحابه ان يوقفوا ظرفاً اهل خراسان وكبراءهم على هذا العقار . فاطلعوهم على سره واستعملوه وشاع امر الحشيشة في بلاد خراسان وفارس ولم يكن اهل العراق يعرفونه حتى جاءهم صاحب هرمز ومحمد بن محمد صاحب البحرين وهما من ملوك سيف البحر المجاور لبلاد فارس في ايام الملك المستنصر بالله وذلك سنة ٦٢٨ هـ فحملها اصحابها معهم فاظهروا للناس اكلها فاشتهرت بالعراق ووصل خبرها الى الشام ومصر وبلاد الروم فاستعملوها وفي نسبتها الى الشيخ حيدر يقول الاديب محمد بن علي بن الاعمى الدمشقي :

دع الخمر واشرب من مدامة حيدر ... معنبرة خضراء مثل الزبرجد

ولا نص في تحريمها عند مالك ... ولا حد عند الشافعي واحمد

ولا اثبت النعمان تنجيس عينها ... فخذها بحد المشرفي المهند

(١) وقد اخبرني اكثر الدراويش بان اسمه جلال الدين حيدر وانه مدفون في الهند وهذا يخالف ما يرويه المقريزي وهو انه مدفون في خراسان ولست واثقا بالروايتين .

وقال بعضهم لم يأكل الشيخ حيدر الحشيشة طول عمره وانما اهل خراسان نسبوها اليه لاشتهار اصحابه بها، وان اظهارها كان قبل وجوده بزمان طويل وذلك انه كان بالهند شيخ يسمى (بير رطن) وهو اول من اظهر لاهل الهند اكلها ولم يكونوا يعرفونها قبل ذلك ثم شاع امرها في بلاد الهند حتى ذاع خبرها ببلاد اليمن ثم اتصل خبرها باهل فارس ومنها الى العراق والروم والشام ومصر. قال: وكان بير رطن في زمان الاكاسرة وادرك الاسلام فاسلم فاخذ الناس من ذلك الوقت يستعملونها وقد نسب اظهارها الى الهند علي بن الشاعر بقوله من قصيدة:

فقم فانف جيش الهم وا كفف يد العنا ... بهندية امضى من البيض والسمر

بهندية في اصل اظهار اكلها ... الى الناس لاهندية اللون كالسمر

تزيل لهيب الهم عنا باكلها ... وتهدي لنا الافراح بالسر والجهر

قال: وانا اقول انه قديم معروف منذ اوجد الله تعالى الدنيا وقد كان على عهد اليونانيين. والدليل على ذلك ما نقله الاطباء في كتبهم عن بقراط وجالينوس من مزاج هذا العقار وخواصه ومنافعه ومضاره.

وانا ارى ان الحشيشة استعملت قبل الشيخ حيدر: استعملها (الحسن بن الصباح) وجعلها ستارا وسرا لطائفته الجهنمية المسماة (بالباطنية) وبها سموا (حشاشين) « Assassins. »

والدراويش يستعملون الحشيشة في مجتمعاتهم سرا خوف الناس وقد سألت احد الدراويش عن سبب استعماله الحشيشة مع ان فيها مادة مسكرة والمسكر حرام شرعا فقال: انه يستعملها لانها تزيل الهموم الرابضة في الصدر وانها ليست حراما لان الله نص على تحريم الخمر في كتابه اما الحشيشة فحلال لانه لم يأت نص يوجب تحريمها.

اجتماعاتهم

لا يجتمع الدراويش لذكر او تلاوة دعاء او ورد او غير ذلك إلا في العشرة الاولى من المحرم الحرام فيعقدون مجالس خلال تلك الايام للعزاء بعد ان يكونوا قد نصبوا خيمة كبيرة واسعة في صحن المزارات المقدسة وهم يعلقون على الجدران المظللة بالخيمة قدائم وهراوات وطاسات وكشاكيل ويوقدون الشموع في كل ليلة من الليالي العشر الاولى من المحرم ويقرأون المآتم. وفي اليوم العاشر

يخرجون جماعة واحدة وقد نشروا شعورهم على اكتافهم وحملوا كشاكيلهم وابواقهم وهم ينشدون نشيدا واحدا لايتغير وهو (نادوا عليا عليا ياعلي) وبين آونة واخرى يخرج احدهم قرنا ينفخ فيه فيتبعه الباقون فينفخون في القرون فتفزع النساء ويهرب الصبية .

اصول الاستجداء

وللدراويش اسلوب خاص بالاستجداء يتفننون فيه تفننا عجيبا ولهم طرق كثيرة منها : ان الدرويش يقف في الاسواق المحتشدة بالناس منشدا شعرا في مدح النبي وآله ولا يمد يده الى الناس ولايطلب شيئا فيتصدق عليه المارون بدرهم او فلس يرمونه في كشكوله فيدعو لهم بصوت خافت . ولاجل ان يلفت انظار الجمهور اليه يصرخ باعلى صوته « دوست علي مولا جان » او « امير المؤمنين اسد الله جانم » .

ومنهم من ينشر شعره الطويل على كتفيه ويمشي في الاسواق منشدا شعرا ويقدم خلال انشاده له ريحانا الى اصحاب الحوانيت فيرمون له في (كشكوله) بما يجودون به عليه . والذين لايريدون ان يتصدقوا عليه يقولون له : (سبزشود) اي فليكن اخضر او (بنجشيد) اي اعذرنا والكلمة (سبزشود) رمز خاص الى الدرويش وهي هديته وهذه مأخوذة من بيت يحفظه كل درويش وهو :

بلك سبزي است تحفة درويش جه كند بي نوا همين دارد(١)

ومعناه الورق الاخضر تحفة الدرويش ماذا يفعل المسكين . هذا كل ماعنده . واذا قال احدهم للدرويش (خدا بدهد) (اي يعطيك الله) يتألم كثيرا لانه يعتقد ان ليس لاحد شيء يملكه في الحياة والاموال مشاعة بين الناس وانه لايطلب غير حقه

ومنهم من لا يستظهر على قلبه شعرا فيقتصر على ترديد الفاظ مثل : « يا احد ، ويا صمد ، ويا قدير » .

ومثل (بلغ العلى بكماله . كشف الدجى بجماله . حسنت جميع خصاله ، صلوا عليه وآله) .

١) رواية الدرويش (بلبل)

او (اكر خسته جاني بكو ياعلي واكرنا تواني بكو ياعلي مترس وملرز بكو ياعلي) اي « اذا كنت مريضا قل ياعلي ، وان كنت ضعيفا قل ياعلي ، لاتخف ولاترجف وقل ياعلي » .

وبينهم من يحمل بيده افعوانا مقلوع الناب او لاناب له أو يلف على معصمه حية طويلة رقطاء يكحل بدنيها عيون الناس بذرهم او اكثر يوهمهم ان التكحل بذنب الحيات يحفظ المكحول به من العمى .

ومن طرقهم ان يقف اثنان في الصحن فيخطر ان جيئة وذهابا متباريين انشاد الاشعار والمكان فاذا انتهيا من انشادهما واجتمع الناس حولهما وحل وقت الاستجداء قال احدهم للاخر :

اي مرشد :

اجابه الاخر : بلى قربان اي انا فداؤك وهو اصطلاح خاص بالفرس .

ثم يسأله : هركه جراغ اول را ميبهد جه شود ؟

اي ماذا يكون من يعطي (الجراغ) الاول ؟ والجراغ معناه (النور) ويريدون بالنور الدراهم وهو اصطلاح خاص بالدراويش .

فيجيبه : خداي عزوجل عمر اورا دراز كند واورا از مصائب وستم فلك دور كند » اي يطيل الله عزوجل عمره ويجعله بعيدا عن المصائب ومظالم الفلك .

وخلال هذه المحاورة يتصدق الناس عليهم .

تحيتهم

التحية الشائعة على افواه المسلمين هي كلمة « السلام عليكم » اما الدراويش فلا يستعملونها إلّا نادرا ويستعملون في مكانها قولهم : « مدد ياعلي »

هذا ما وقفنا عليه بنفسنا من غير ان نقتبس شيئا من اي كتاب كان .

احمد حامد الصراف

(تذكير) اذا وقفت على هذا المقال ، راجع ما جاء في معلمة الاسلام بعنوان « درويش » تر فرقا عظيما بين الوصفين : ثم حاكم نفسك وقل : من ترى اجاد في ما اورد وفصل ؟ ان الصراف صرف القارئ عن كل مقال سواه .